28

الحفاظ على العلاقة الصينية ـ الأمريكية:

في ربيع 1974، حل دينغ زياوبينغ محل زهاو إنلاي بوصفه مفاوضاً رئيسياً لنا في الصين. ونظراً لأنني كنت قد اعتدت على إشارات ماوتسي تونغ الفلسفية الخفية وعلى حرفية زهاو الناعمة اللطيفة، فقد احتجت بعض الوقت كي أكيف نفسي مع أسلوب دينغ الفظ الجاد، وتدخلاته التشاؤمية، وازدرائه للفلسفة لصالح كل ما هو عملي واضح. لقد كان يدخل الغرفة، مشدوداً متوتراً، وهو في كامل جاهزيته للعمل. والمبصقة أمامه ـ تلك التي كان يستخدمها غالباً وكأنه يفقد ملاحظاته – نادراً ما كان دينغ يهدر وقته في التسليات. ولم يكن يشعر أن من الضروري تلطيف ملاحظاته من خلال لفها بالأمثلة أو الحكايات الرمزية ولم يكن يغلف أياً منها بالعناية المفرطة كما كان زهاو يرغب في أن يفعل، كذلك لم يكن يعاملني، كما كان ما يعاملني، كفيلسوف زميل يستحق اهتمامه الشخصي. فموقف دينغ هو أننا كلينا موجودان لكي نعالج قضايا تتعلق بأمتينا وأننا ناضجان كفاية بحيث نتناول أكثر الأمور صعوبة بصرامة وموضوعية دون أن نتناول من أي منظور شخصي.

وفيما يتعلق بالعلاقات الصينية ـــ الأمريكية، كان موقف دينغ ذا صلة وثيقة بنظرته فيما يخص التطور الداخلي للصين. كان ماو وزهاو قد أسسا طريقة للتعامل مع الولايات المتحدة قائمة إلى حد كبير على أسس السياسة الخارجية الأمن، أما دينغ فكان دائماً يعامل العلاقات المباشرة مع أمريكا كعنصر ضروري من عناصر تحديث الصين، وكان يؤمن، شأنه شأن سابقيه، أنه طالما كانت الصين في عالم يتكون من روسيا المهدّدة بالخطر، واليابان الناهضة، والهند المؤكدة ـ لذاتها بصورة متزايدة، وفيتنام الشمالية التي تسير على طريق تحقيق الهيمنة على الهند الصينية، يظل الخيار الاستراتيجي الأفضل للصين هو أن تحسن علاقاتها مع الولايات المتحدة.

بيد أن العلاقات الودية مع أمريكا إنما كان دينغ يراها ضرورية لغاية أخرى هي تطور الصين الداخلي أيضاً. وفي الوقت الذي التقيت به كان لديه ما يكفيه من الاضطراب السياسي، إذ كان دينغ يسعى، وهو يتابع مسألة التقدم الاقتصادي، من أجل تحقيق تحسن كبير في رفاه الشعب الصيني، وكانت التكنولوجيا الأمريكية والتعاون الاقتصادي مع أمريكا ضروريين للإصلاح الاقتصادي والاجتماعي الذي كان ملتزماً به.

obeikandl.com

زيارة إلى بكين

حدثت مفاوضاتي الرسمية الأولى مع دينغ عندما زرت بكين بين 25 تشرين الثاني و29 منه، سنة 1974، كي أقدم للقيادة الصينية مباشرة ملخصاً لما دار في قمة بريجينيف ـ فورد في فلاديفستوك. ولم تكن باللحظة الأكثر ملاءمة لاجتماع استهلاكي يحدث لأول مرة.

إذ إن المقاطعات البحرية السوفيتية، التي باتت فلاديفستوك عاصمتها، كانت قد أخذت من الصين في القرن التاسع عشر، ثم أنشئت فلاديفستوك كقاعدة بحرية من أجل أية أنشطة داخل كورية والمحيط الهادئ، وبالنسبة إلى قيادة كالقيادة الصينية، التي تعتبر كل عمل وراءه غرض ما وكل حدث يرمز إلى شيء ما، فإن المكان الذي عقدت فيه القمة قامت بتثبيت ريبة ماو (كما قال لي هو نفسه في شباط 1973) في أن الاستراتيجية الأمريكية هي أن تجعل «الماء الفاسد يتدفق باتجاه الصين». تلك المشاعر عززتها ولا شك حقيقة أخرى هي: أن بريجينيف نفسه لم يكن قد زار من قبل فلاديفستوك أو المقاطعات البحرية ـ وهي الحقيقة التي عرفناها في وقت متأخر أكثر من أن يستطيع التأثير في قرار اللقاء هناك.

لقد تم اختيار فلاديفستوك لجملة من الأسباب التقنية، كل منها بدا مقبولاً في ذلك الحين. ولم يكن لأي منها علاقة بمسألة لفت انتباه الاتحاد السوفيتي إلى المحيط الهادئ، كما كان بعض القادة الصينيين ـ ومنهم، ربما، ماو ـ يعتقدون كل الاعتقاد. فحين أقسم فورد اليمين الدستورية، كان يرغب في لقاء بريجينيف. وقد رفضنا موقعاً أوروبياً، لأن الرئيس، الراغب في إعادة الحياة للروابط الأطلسية، فكر بأن لقاءه مع زملائه الأوروبيين في ظل قمة مع بريجينيف قد يعطي الأمر مظهراً وكأنه يحطّ من قدر أوروبا. وحين أشار دوبرينيين إلى أن فلاديفستوك قد تكون مناسبة تماماً لأن تقع ضمن رحلة رئاسية مخططة إلى كوريا واليابان في تشرين الثاني، قمنا بالاختيار المريح. فقمة بريجينيف في آسيا كانت سهلة إمداداً وتموينًا، وكانت جديدة لا سابقة لها إضافة إلى هذا فقد كانت مثيرة وتلفت انتباه وسائل الإعلام. لكن ما من خبير في أية وكالة مخابرات حذر من أن لها دلالات بالنسبة إلى الصين، رغم أنه كان علي أن أعرف ذلك بنفسي.

لم يضع دينغ وقته في التعبير عن الانزعاج الصيني. فخلال دردشة الترحيب في القاعة الكبرى لقصر الشعب يوم الاثنين، 25 تشرين الثاني، سألني كيف وجدت فلاديفستوك، فأجبت بأنني لم أبرد عمري كله كما بردت فلاديفستوك، وبما أنني كنت مشوشاً بشكل من الأشكال نتيجة أسبوع من الرحلات الرئاسية والجلسات الطويلة في مؤتمرات القمة، أضفت: «الآن فقد عرفت لماذا لم يستقر الصينيون البتة في ذلك الإقليم: «إذ إنني بإشارتي تلك إلى أن فلاديفستوك كانت روسية دائماً، فقد صببت بالطبع، الوقود على نار الكراهية المشتعلة أصلاً، فصحح لي دينغ مباشرة: «كان هناك الكثير من الصينيين في تلك المنطقة، بل في الماضي كان جل السكان من الصينيين». أما الاسمان المختلفان اللذان أطلقا على

المدينة من قبل الصينيين والروس فقد كانا يعكسان أغراض كل منهما، حسب رأي دينغ. ذلك أن الاسم الصيني كان يعني «بزاقة البحر»، فيما الاسم الروسي يعني «حكم الشرق»، «أنا لا أظن أن لها أي معنى آخر سوى ما تعنية بقيمتها المباشرة»، أضاف دينغ، كما لم يكن لدينا أية أوهام في أن اندفاعة الروس نحو الشرق يمكن أن تقتصر على الصين. «فالصين تتضمن أيضاً جزءاً من المحيط الهادئ الذي أنتم فيه» حذر دينغ.

ولكي يبين أن الاثنين يمكن أن يلعبا لعبة الثلاثة، باشر دينغ بفعل ذلك ضمن حكومتنا، بأن وجَّه، باسم ماو، دعوة لوزير الدفاع جيمس شليسنجر، لزيارة الصين، مقترحاً بكل براءة، أن تتضمن خط رحلته زينجيانغ ومنغوليا الداخلية، وكلتاهما كانت منطقة عسكرية تحاذي الحدود السوفيتية. ونظراً لأنه لم يكن باستطاعته أن يتأكد من أن الغربيين لقطوا الحبة، فقد أكد دينغ على أن قيمة الزيارة ستكون بمغزاها ذاته. وبما أنه من غير الممكن أن يكون دينغ وماو غير مدركين للنزاع القائم بيني وبين شليسنجر، فقد كانت الفكرة هي إيجاد فسحة مضمونة يملأها كتاب الزوايا واشنطن. فوضع الثقل إلى جانب القوى المضادة – للانفراج ظاهرياً في الولايات المتحدة إنما كان ولا شك محاولة للرد رداً سريعاً وانتقامياً على زلتنا في الذهاب إلى فلاديفستوك.

كذلك كان للدعوة غرض استراتيجي آخر. فزيارة وزير الدفاع الأمريكي إلى الصين ـ لاسيما حين يسلط الأضواء عليها أكثر بمحطات يتوقف فيها في مناطق تقع على حدود الاتحاد السوفيتي ـ ستتلقاها موسكو على أنها تحد سافر ـ لاسيما وأنه ما من وزير دفاع أمريكي زار موسكو من قبل. لكن مع تأرجح قانون التجارة على شفا الانهيار وتعرض اتفاقية فلاديفستوك للتهجمات فإننا لم نكن بحاجة وليس لدينا الرغبة في التعرض لمثل تلك السخرية في تلك المرحلة.

أجبته بأننا نرحب بأية زيارة إلى الصين من أي عضو من أعضاء الوزارة، لكن زيارة يقوم بها وزير الدفاع هي بحاجة إلى إنضاج أكثر. وقد خففت من أثر رفضي بقبول دعوة للرئيس فورد لزيارة الصين سنة 1975، فوجه دينغ الدعوة مباشرة حتى دون التظاهر بأخذ موافقة ماو، ولعل الهدف الوحيد من دعوة شليسنجر حسب معرفتي ـ رغم أنني أشك بذلك ـ هو جعلي أقترح زيارة رئاسية.

كان لدى الصينيين وسائل أخرى لتبيان انزعاجهم، فالزيارة إلى بكين في أعقاب قمة فلاديفستوك كانت المرة الوحيدة التي أزورها بها منذ زيارتي السرية تلك التي لم يستقبلني بها ماو. فدبلوماسيتنا المثلثية كانت قد أصبحت شفافة وواضحة تقريباً لخبراء السياسة الواقعية أولئك. والسماح لصانعي السياسة الأمريكيين الرفيعين بالالتقاء بكل من بريجينيف وماو في غضون بضعة أيام كان شيئاً كثيراً.

مع ذلك لم يكن لمضيفينا أن يفصلوا الزيارة كلياً عن القادة الذين استعادوا العلاقات الصينية ـ الأمريكية. فلدى وصولي وقبل لقائي بدينغ، أخذونا، أنا وأطفالي وزوجتي نانسي، للقاء قصير مع زهاو

إينـلاي، فـي ما قيل لنـا إنه مستشفى لكنه بدا وكأنـه مضافة رسمية عادية. كان زهـاو ساحراً وهو يصرّ بإلحـاح على أن أطباءه وصفوا له الدواء الذي يشفيه، ألا وهو الامتناع عن مناقشة الموضوعات السياسية التي يمكن أن تسبب له التوتر (انظر الفصل 5).

حيـن أوضح الصينيـون نقطتهم المتعلقـة بالمثلث الاستراتيجـي، تمنى دينغ أن تجـري المناقشات العمليـة بطريقـة من القلب إلـى القلب، جاعلاً نبرته ضمن حـدود استماع الإعلام عندمـا استقبلني في القاعة الكبرى لقصر الشعب:

يقول الناس في العالم إن العلاقات بين دولتينا باردة قليلاً. غير أن هذه هي الزيارة السابعة للدكتور، ومـن الممكن اعتبار هـذه هي التبادل الثالث لوجهات النظر بين دولتينا هـذه السنة، لذا فإن ذلك الرأي الدائر في بعض الأوساط لا يمكن اعتباره دقيقاً.

هنـا أكـدت أن العلاقات تمضي بصـورة حسنة، وبناء عليه عـاد دينغ فأكد على الأهميـة التي توليها الصيـن لروابطها مع واشنطن: «أنا لا أظن أن توقيع بيان شانغهاي اعتبر من أي جانب من الجانبين على أنه حركة نفعية». ولكي يؤكد على الجو الودي بيننا حضر دينغ مائدة العشاء الترحيبية التي أقيمت لفريقي والتـي كان يحضرها بروتوكوليـاً وزير الخارجية. كما دعي عدة مئات من الدبلوماسيين والرسميين، فيما أنشدت جوقة عسكرية الأغاني الصينية موزعة بين الأنغام الأمريكية المشهورة تماماً كما حدث في زيارة نيكسـون. وفـي المساء التالي، دعا دينغ أعضاء وفدي لمشاركته في وجبة منغولية ساخنة في قاعة خاصة من مطعم شعبي، وهي مجاملة أخرى غير مألوفة.

أصـر دينغ، خلال لقاءاتنـا التالية كلها، على مناداتي «بالدكتور» وهي صفـة تكريمية لي انطلاقاً من خلفيتـي الأكاديمية وهـي الصفة ذاتها التي كان ماو نفسـه قد تبناها. على أن إيقـاع المحادثات، بوجود دينغ، كان أقل تراخياً واستطراداً بكثير مما كان مع زهاو.

كانت الاجتماعات مبرمجة لفترات زمنية ثابتة وفق جدول أعمال متفق عليه سلفاً، إذ كان هناك ثلاثة اجتماعات كل يوم، يدوم كل منها ساعة ونصف الساعة، وكما كان الشأن بوجود زهاو، فقد كان يجري نوع من التناوب بالنسبة إلى مكان الاجتماع بين المضافة الرسمية والقاعة الكبرى لقصر الشعب.

في البداية، كانت المناقشات تسير وفق الخطوط المألوفة. فدينغ الأكثر عداء للسوفييت من زهاو، إن كان هناك من هو أكثر عداء، كان يناقش العلاقة الصينية ـ الأمريكية كما لو أن احتواء الاتحاد السوفيتي هـو مشروع مشتـرك ـ بل كما لو أننا، بالحقيقـة، أعضاء في الحلف ذاته. كذلك تعهـد بالتعاون الصيني مـن أجل تقويـة العلاقات الأمريكية مع أوروبا باعتبارها طرفاً أساسيـاً في استراتيجية الحد من النزعة التوسعيـة السوفيتية. ولكـي ييسر الأمور لهـذه الاستراتيجية، قال دينغ: إنه يشجعنـا على إقامة علاقات وثيقة مع اليابان، التي هي منذئذ فصاعداً مصدر اهتمام صيني كبير.

obeikandi.com

إننا نرحب في أن تبقى الولايات المتحدة على علاقتها الطيبة مع أوروبا واليابان.. ذلك أن السوفييت الآن مصممون على السعي للهيمنة على العالم، وإذا ما رغبوا في شن حرب عالمية ولم يريدوا الحصول على أوربا أولاً، فلن يفلحوا في تحقيق الهيمنة في الأنحاء الأخرى من العالم، لأن أوروبا بالغة الأهمية سياسياً، واقتصادياً وعسكرياً.. وإننا لنشعر فيما يتعلق بالولايات المتحدة أنها حين تتعامل مع «الدب القطبي» . فمن الضروري أيضاً بالنسبة إليها أن يكون لديها حلفاء أقوياء في أوروبا واليابان.

كما كان يأمل أن تكون الولايات المتحدة، وأوروبا، واليابان «في موقع شركة تقوم على أساس المساواة. إذ إنه على أساس المساواة فقط يمكنك أن تقيم شركة حقيقة. ولا عجب في أنني حينذاك أبديت ملاحظة إلى دينغ بأن الصين تتحول إلى واحدة من أفضل حليفاتنا في الناتو.

لكن إذا كنا اتفقنا على الاستراتيجية، فإن خلافات جدية كانت قائمة فيما يتعلق بالتكتيك. إذ رفض دينغ وأعوانه فكرة الانفراج بنوع من الشدة ربما كانت ترضي المحافظين الجدد في «الكومنتري». فقد أكد أن الأهداف السوفيتية ثابتة لا تتغير.

«ألا يحاولوا تفريق الولايات المتحدة عن حلفائها.. هم لا يتخلون أبداً عن هذا الهدف، لا في الماضي ولا في الحاضر ولا في المستقبل. الهدف الثالث سيكون دعم الموقع الاحتكاري لبلديكما في ميدان الأسلحة النووية (وبذلك) تحجّمان البلدان ذات الأسلحة النووية القليلة فقط وبهذا يصلون هم إلى هدفهم في الهيمنة» .

وأية معاهدات يوقعها الاتحاد السوفيتي هي مجرد محطات على طريق تلك الاستراتيجية لذا:

«نحن، من جانبنا، لا نؤمن بأنه من الممكن التوصل إلى انفراج - فرغم مرور عشر سنوات ما يزال أقل رسوخاً. كما لا نعتقد أنه توجد أي اتفاقية يمكن أن توثق يدي روسيا».

لقد كنت أتفق مع تحليل دينغ لأهداف السوفييت وضرورة إحباطها. لكن حاجات أمريكا التكتيكية كانت مختلفة. فقد كنا، نحن الذين تجاوزنا للتو أزمة ووترغيت، بحاجة إلى استراتيجية أكثر تعقيداً. إذ طالما كان بالإمكان تصوير الولايات المتحدة على أنها تتبنى سياسة عدائية لا ضرورة لها، فإن حركات السلام المختلفة ستعاود الظهور متجمعة تحت راية وضع حد لأمريكا الميالة للحرب، وسوف تقع الحكومات الأوروبية تحت الضغط الشديد للانفصال عنا. وحسب وجهة نظرنا، فإن تماهينا مع السلام ومتابعة السلام هو الشرط المسبق لسياسة دفاعية ملائمة ولتحالف قوي.

على أنه ليس باستطاعتي القول إنني سحبت البساط من تحت أقدام مفاوضينا الصينيين بذرائعي وحججي تلك. فهم لم يعترضوا عليها. لكن بما أن الانفراج قدم لنا خيارات أكثر مما كان لديهم، فهو لم يكن الشرط الذي يمكن لرجل دولة أن يميل للاحتفاء به. لقد أشار وزير الخارجية كياوغوانهوا إلى السبب

الـذي يتعين فيه على التكتيك أن يكون تابعاً للاستراتيجيـة: «الحقيقة الحاسمة ليست أي معاهدة بل هي السياسـة، والمبادئ والنهج». وفي الختام، أعلن دينـغ هدنة، إذ كان يأمل من الولايات المتحدة أن ترسخ التفوق العسكري:

«بالنسبـة إلى التأكيد الاستراتيجي للاتحاد السوفيتـي، فإننا نراه على أنه «خدعة للشرق للهجوم في الغرب» ـ للهجوم في أوربا. ولا يهم إن كانت وجهتا نظرنا مختلفتين، فإن بإمكاننا أن نرى ما يحدث».

ما حدث بعد ذلك هو أن قدرة أمريكا على التصرف دولياً انخفضت أكثر وأكثر نتيجة الشلل الداخلي. فقـد شهـد ربيع وصيـف 1975، كما رأينـا، أزمة خانقة فـي مفاوضـات السالت، انهيـار اتفاقية التجارة السوفيتيـة ـ الأمريكية، سقوط الهند الصينية، وبلـوغ تحقيقات المخابرات لذروتها. من المؤكد أن بكين كانـت ترحب ببـرودة العلاقات السوفيتيـة ـ الأمريكية، لكـن ليس عندما يفرض ذلك نوعـاً من الضعف الداخلـي الأمريكـي. على أن ازدياد الأزمة بين الرئيس والكونغرس قلـل كثيراً من قيمة الولايات المتحدة وأظهرها «هشة بصورة متزايدة وسلبية استراتيجياً».

بالنسبـة إلـى بكين، كان الكابوس هو أنـه من الممكن أن تواجه الصين عزلـة مخيفة تظهر من جديد نتيجـة للشلـل الداخلي الزاحف على واشنطن، وتلك مسألة ذات أهميـة داخلية كبيرة أيضاً. فإذا ما غدت الولايـات المتحـدة عاجزة عن إبقاء التوازن قائمـاً، فإن الصين ستكون مضطـرة لتجميع شعبها من أجل جولة جديدة من الحماسة القومية والتضحية. غير أن ذلك يؤدي بدوره إلى تفاقم قضية تايوان سوءاً، وإلى تعريـض العلاقات الأمريكية للخطـر أكثر وأكثر، لكن مع انهيار الثقة الصينيـة بمقدرة أمريكا على توفير الثقل الموازن للنزعة التوسعية السوفيتية، بدأت الصين تنسحب إلى موقف العالم الثالث وهو شن الهجوم على كلتا القوتين العظيمتين، رغم أنه ظل الاتحاد السوفيتي يتلقى النصيب الأوفر من حدة النقد.

فـي الوقـت ذاته، كان الموقف الداخلي فـي الصين يغدو أكثر وأكثر تعقيداً. إذ كان ماو يضعف أكثر فأكثر، وكان زهاو مريضاً (جسدياً وربما سياسياً) فيما كان دينغ ما يزال يرسخ موطئاً لقدمه. في غضون ذلك، كانت المعارضة الداخلية المرسخة لأقدامها بصورة متزايدة في وجه السياسات الإصلاحية لدينغ، تنمـي ما بات يعرف فيما بعـد باسم عصبة الأربعة، بزعامة زوجة ماو، جيانـغ كينغ، ولكل هذه الأسباب، غدت السياسة الخارجية الصينية تفتقر لحسن توجه واضح كانت تتميز به عادة. إذ إن بعض قادة الصين ووسائـل إعلامهـا خلال 1975 والقسم الأكبر من 1976، ورّطوا أنفسهم فـي سياستنا الداخلية من خلال اشتراكهم في الهجوم على الانفراج.

حوار مع دينغ وماو:

كانـت حالة العلاقـات حالة غريبة. إذ ما من قائد مـن قادة الحلفاء تلقى تلخيصـاً أكمل فيما يتعلق بسياستنـا ونوايانـا مما تلقاه الصينيـون. ونظراً لأنه كان هناك قدر ضئيل مـن التعامل الاقتصادي بيننا

وقدر أضأل من المشاريع السياسية المنسقة علناً، كانت أفضل طريقة لتنسيق السياسات هي من خلال التفهم الدقيق لاستراتيجية كل منا، وقد رد القادة الصينيون، سائرين على المبدأ نفسه، بتقديم تفصيلات كبيرة حول أسلوبهم ونهجهم.

فكان لهذا نتيجتان: في مجال الدبلوماسية العادية، ناقش المسؤول على أرفع مستوى الخطوات المحددة التي يمكن لبلديهم أن يتخذاها معاً، في محاولة منهم لاستثارة مفاوضيهم لتقديم مقابل ما، على أنه ما من شيء كهذا حدث في السنوات الأولى من العلاقات الصينية ـ الأمريكية. فمناقشاتي مع ماو أو زهاو أو دينغ كانت مفاهيمية، نظرية تقريباً. أما المحاولة الوحيدة في مجال التنسيق التكتيكي ـ توسط الصين في مشكلة كمبوديا، في حزيران 1973 ـ فلم تتكرر. إذ لم يغامر زهاو ولا دينغ من بعده مرة ثانية، بموقفهما تجاه غوامض السياسة الداخلية الأمريكية وألغازها.

لم تكن سياستنا، فيما يتعلق بالاستراتيجية الطويلة – الأمد، المتوازية مع ذلك، منسقة رسمياً قط. كما ظلت تعتمد على المناقشات المفاهيمية التي تعين عليها، سنة 1976–1975، أن تخاطب الاهتمامات والتي تُظهر، أن الانفراج يمكن أن يضعف حذر الضحايا المحتملين للنزعة التوسعية السوفيتية دون حشد الرأي العام الأمريكي. وعلى الصعيد العملي، كانوا منزعجين خشية أن يتبين أن تقويمنا للأمور في مكانه، مؤكدين على ضرورة أن تكون المعارضة للتحركات السوفيتية في الغرب أكثر فعالية. وإلا، فقد تكون النتيجة العملية هي جعل «الماء الفساد يتدفق إلى الصين»، كما قال ماو، وبذلك يتعزز خطر الضغط السوفيتي على الصين. وأن نفسر لأولئك الممارسين للسياسة الواقعية أن مثل هذه الاستراتيجية تتجاوز مدى إدراك صانعي – السياسة الأمركيين، فإن ذلك سيصطدم بالخبرات الصينية التي تراكمت طوال خمسة آلاف سنة من تبديل الأحلاف والحلفاء.

لم يكن الجدل، من حيث الجوهر، يدور حول الحجج المحددة التي قدمت، بل حول طبيعة المرونة. إذ كان من الطبيعي بالنسبة إلى القادة الصينيين أن يسعوا للتقليل من خياراتنا إلى أقل حد ويفضل أن يكون الخيار الوحيد المتجانس أكثر من الصين الطويل – الأمد، ألا وهو المواجهة الصريحة مع الاتحاد السوفيتي، لأن ذلك يمكن أن يخفف من قلقهم وشكهم وكذلك من قوتنا على المساومة. كذلك كان يدخل في صميم اهتمامنا أن ندعم الخيارات التي تتيح لنا إمكانية تعديل سياسات بعينها طبقاً لمتطلباتنا الاستراتيجية وكذلك متطلبات كسب الدعم الشعبي.

تلك كانت القضية على نحو خاص، لأن السياسة الصينية، في تلك الفترة، كانت قد بدأت بالاتجاه نحو التصلب العقائدي. فما دعي بعصبة الأربعة التي كانت تتضمن، إضافة إلى زوجة ماو، زهانغ شونكياو، ياو وينيووان ووانغ هونغوين، راحت تلعب دوراً مهيمناً خلال الأشهر الستة الأخيرة من حياة ماو. فقد استنكرت، هي الأشد تطرفاً وعقائدية مع دينغ، إصلاحاته السياسية باعتبارها عودة إلى «الطريق

الرأسمالـي»، ثم تبنت أيضاً موقفاً عدائياً بصـورة متزايدة تجاه علاقات أمريكا مع تايوان. ومن الواضح أن الأربعة كانوا يتوسلون إلى ذلك بنزاعات ماو العقائدية، التي كان الزعيم المسن نفسه قد صمت إزاءها في وجه الخطر الشديد الذي يمثله الاتحاد السوفيتي.

وهكـذا، أثبتـت رحلتي التالية إلى بكيـن، التي بدأت في 19 تشريـن الأول 1975، أنها الأصعب من كل مقابلاتـي مـع القادة الصينيين. فهدف تلـك الزيارة كان الإعداد لقمة فورد مع مـاو ودينغ المخطط لها فـي مطلع كانون الأول، ومع اقتراب الزيارة، أصبح واضحـاً أن وزير الخارجية الصيني كياوغوانهوا، كان يسيـر علـى خط أكثر تشدداً مع دينغ دون أن يبدو على هذا الأخيـر أنه قادر على لجم مرؤوسه. لكن، بعد سنيـن، علمنا أن كياو كان قد ربط مصيـره بمصير الأربعة الذين كانوا، خلال ستة أشهر، سينجحون في الإطاحة بدينغ.

لم يكن كياو غوانهوا عضواً طبيعياً في هذا الرباعي، إذ كان، وهو تلميذ زهاو إنلاي، نظيري المشارك فـي وضـع مسودة بيـان شانغهاي سنة 1972، وكان الانطبـاع الذي تركه لدي هو، أنه ذكـي واسع المعرفة للغايـة وساحـر كل السحر حين يناسبه الأمر. كان كياو يتحدر مـن البورجوازية وقد درس في ألمانيا كما كان يفتخر بنفسه لمعرفته بهيغل. لماذا انضم إلى عصبة الأربعة أمر سيبقى موضع تخمين نظراً لأنه لم يفسـره فـي السنوات التي بقيـت له بعد أن عاد دينغ من المنفى مرة ثانية وطـرد كياو من منصبه. أكانت تلـك قناعتـه أم تراها نفعية وصولية، أم هو تأثير زوجته الشابة، والصديقة الحميمة لزوجة ماو؟ أياً كان السبـب، فقد أبدى كياو حماسـة المرتد لسبب جيد. ذلك أنه كان من النمط التقليدي للبيروقراطية، فهو السياسـي الصينـي الذي عرّفـه العقائديون بأنه «كونفوشي»، والـذي كان ماو يشير إليـه أحياناً بنوع من السخرية على أنه هو «اللورد كياو».

قبـل بضعـة أسابيع، وفي الولايات المتحـدة، كان كياو قد شن هجوماً عنيفاً علـى سياستنا الانفراجية، وهـا هـو يعارض الآن كتابة مسودة البيـان الذي يمكن، دونـه، أن تظهر قمة فورد مضـادة للقمة. جزء من المشكلـة كان يعـود أصلاً لتطور العلاقة. فرحلـة ريتشارد نيكسون التاريخية، سنـة 1972، كانت قد أثمرت بيان شانغهاي، الذي وضع المخطط الأساسي للعلاقات الصينية ـ الأمريكية المستعادة، ولم يكن هناك من حاجة لتكرار أقواله. الخطوة التالية كان ينبغي الاعتراف ببكين على أنها حكومة الصين، وهو الأمر الذي لم نكن مستعدين له، وكان القادة الصينيون ينفرون لأسبابهم الداخلية الخاصة من الموافقة على بيان لا يذكر تايوان. مع ذلك، كان القادة الصينيون، وخصوصاً دينغ، يعلقون أهمية كبيرة على زيارة فورد وعلى تبيان أن العلاقات الصينية ـ الأمريكية ما تزال وثيقة، نظراً لأن هذا يشكل أحد مصادر قوتهم الدولية الأساسية.

فـي تشريـن الأول 1975، حدث أننـي كنت أمثل ولايات متحدة منقسمة فـي عاصمة صينية محاصرة بانقساماتها. رحب بي دينغ في القاعة الكبرى لقصر الشعب ثم سعى لتخفيف التوتر الذي ارتبط بخطاب

وزير الخارجية في الأمم المتحدة، قائلاً: إننا حتى عندما نختلف «نلتقي كأصدقاء أليفين». فأبديت ملاحظة وأنا نصف مازح بأن وزير الخارجية كان يحاول إخافتي: «إنه يطلق كثيراً جداً من المدافع» «إنها فارغة»، أجاب دينغ، ومع ذلك، بدا كياو قوياً داخلياً إلى حد يكفي لتجاهل التوبيخ. وعلى مائدة الافتتاح، التي تبعت ذلك والتي حضرها دينغ أيضاً، قلب كياو كلمة نخبه إلى هجوم على الانفراج مأخوذة حرفياً من خطابه في الأمم المتحدة، الذي كنت من قبل قد أشرت لانزعاجي منه. الحقيقة العارية ليست في أن الانفراج تطور إلى مرحلة جديدة بل في أن خطر حرب عالمية جديدة يتصاعد. نحن لا نعتقد بأن هناك أي سلام دائم، فالأمور تتطور تبعاً للقوانين الموضوعية وبمعزل عن إرادة الإنسان. إن الطريقة الوحيدة للتعامل مع نزعة السيطرة هي خوض كفاح مباشر ضده، أما أن يرتكز المرء على أوهام، وأما أن يخطئ بوضع الآمال أو الرغبات موضع الحقيقة ويتصرف طبقاً لها، فإنه سيحرض فقط مطامع النزعة التوسعية التي ستؤدي إلى عواقب وخيمة[2].

هنا أجبت بحدة وبصورة ارتجالية، متجاهلاً ملاحظاتي المعدة من قبل، قائلاً: إن بلادنا تتبع السياسة الأكبر ملاءمة لظروفها الخاصة، وإننا نعارض الهيمنة حيثما كانت، لكننا لا نسعى للمواجهات من أجل المواجهات بحد ذاتها، وإننا وحدنا من يبتُّ متى ندخل فيها. وعلى أية حال، فإن أعمالنا الثابتة الراسخة قد أسهمت في إيقاف التوسع السوفيتي أكثر من خطب «الآخرين» الطنانة الرنانة (ضربة لكياو). وبينما كنت أتكلم، انطفأت فجأة أضواء التلفاز، لذا لم يشهد المشاهدون الأمريكون التبادل الحاد في الكلمات.

في الصباح التالي، حاول دينغ أن يزيل آثار التوتر الباقية من أحداث الليلة الماضية. فقد قال لي: إنه كان يتطلع إلى زيارة الرئيس وواقعة الزيارة بحد ذاتها أهم بكثير من الخلافات التي يمكن أن تقوم، ومهما كانت: «فسيكون كل شيء على ما يرام، وسواء التقت عقولنا أم لم تلتق فلسوف نرحب به».

وإثر بعض النقاش للتفاصيل الفنية لرحلة الرئيس، قدمت استراتيجيتنا الدولية بشيء من التفصيل:

إن الضرورة الاستراتيجية التي نواجهها كلانا إنما هي التهديد السوفيتي. ومن المهم على ما أعتقد أن نفهم أننا هنا نواجه ثلاث مشكلات: الأولى هي الاستراتيجية الشاملة، والثانية هي التكتيك الذي علينا أن نتبعه، والثالثة هي علاقتنا فيما يخص الوضع الدولي الشامل». ثم تابعت: إن الاتحاد السوفيتي غدا أقوى عسكرياً، لكن ذلك نتيجة لتطور التكنولوجيا وليس لسياستنا الانفراجية. كما أنني كنت مضاداً سواء أكان الاتحاد السوفيتي يركز على الغرب أم على الشرق:

بما أن الاتحاد السوفيتي هو بلد أوروبي وآسيوي على حد سواء، فمن المهم أن نحول بينه وبين فرض هيمنته في أي مكان منهما. وبما أننا العنصر الرئيسي في الدفاع ضد الاتحاد السوفيتي، فإن علينا أن

نكون أقوياء في كلا الموضعين. وكما قلت لوزير خارجيتكم، أنا لا أدري أية نظرية هي الصحيحة سواء أكانوا يخادعون الغرب كي يهجموا في الشرق أم يخادعون الشرق كي يهاجموا في الغرب، بل لا أظن أن في هذا أي فرق، لأنهم إن هجموا في الغرب ونجحوا، فإن الشرق سيواجه بعد ذلك قوة أشد وأكبر بكثير، وإن هجموا في الشرق، فإن الغرب سيواجه في النهاية تلك القوة الأشد والأكبر بكثير، إذن، فيما يتعلق بالولايات المتحدة، المشكلة هي ذاتها وليس هنالك فارق كبير».

وكما قلت فإن اختلافنا إنما كان في مجال التكتيك. هنا، وجدنا أنفسنا وجهاً لوجه أمام مفارقة. فالموقف العام الصيني كان متصلباً للغاية، مع ذلك، وفي معظم أنحاء العالم، كانت السياسة اليومية للصين سلبية تماماً، بالحقيقة. أما الموقف العام لأمريكا فقد كان أكثر مرونة جزئياً، إذ كان يتعين علينا أن نوجد في كل جبهات المعارك حينما «مد الاتحاد السوفيتي يده». وكان باستطاعتنا أن ندعم هذه المعارك فقط بإقناع شعبنا بأهدافنا السلمية أساساً:

لهذا، كنا في الشرق الأوسط، وفي أنغولا، وفي البرتغال وفي أماكن أخرى، نشيطين تماماً لكي نمنع التوسع السوفيتي، حتى عندما كان علينا أن نقوم بذلك بمفردنا، بل حتى عندما كنا نتعرض للانتقاد لقيامنا بذلك.

ولكي نتابع هذه السياسة بعد الفوران المحلي الذي حصل كنتيجةً لفيتنام ووترغيت، فإنه من الضروري للغاية بالنسبة إلينا أن نكون في وضع عام في الوطن يحثنا أكثر مما يسبب التوتر» .

لكن كيف نتوصل إلى تحقيق الدعم الداخلي لسياسة الاحتواء أمر لا يعني الصين ـ وسيعنيها أقل لأن قدرة الرئيس الأمريكي التنفيذية على تدبر الرأي العام لديه وضعت موضع التساؤل من خلال سلسلة من الجيشانات غير القابلة للتفسير تقريباً، في أعين الصينيين، والتي كانت ووترغيت أشدها بروزاً. لذلك، بدأ رد دينغ بعدد من نقاط الجدل العملية الواضحة: كم هي كمية الحبوب التي تبيعها الولايات المتحدة للاتحاد السوفيتي؟ كم ننقل له من التكنولوجيا؟ وهل يشكل اتفاق هلسينكي النهائي اعترافاً بالفلك السوفيتي ومنطقة نفوذه؟ ثم تبع تلك الأسئلة الحسية للغاية اقتراح عام:

«نحن لا نفهم لماذا استخدمت الولايات المتحدة والغرب نقاطهما القوية لسد النقص الناجم عن الضعف السوفيتي. فلو استفادت الولايات المتحدة وأوروبا من ضعف الاتحاد السوفيتي، ربما كنتم في موقف تفاوضي أقوى» .

في الجلسة التالية، تقدم دينغ برد لما تقدمت به، فلا بد من مواجهة الاتحاد السوفيتي، هو الذي تنمو ترسانته النووية حتى أكثر مما تقضي الاتفاقيات الموقعة معه، وهدفه الرئيسي هو الغرب، فالحشد في الشرق هو خدعة أساساً، على أن المشكلة هي أن دينغ كان يدعي بأن له صوتاً في استراتيجية الغرب، دون أن يقدم بدلاً مقابلاً سوى الحفاظ على استقلال الصين الخاص. وقد تم هذا، كما أشرت إلى دينغ،

بسبب ضروراته الخاصة وليس خدمةً تقدم لنا. لقد نشأت الشراكة الاستراتيجية بين الصين والولايات المتحدة من التوازن الذي تفرضه الضرورات الجيوسياسية: حتى عندما نختلف في التكتيك، فإن التعاون الصيني ـ الأمريكي يقطع الطريق على التوسع السوفيتي عملياً.

بهذا، انتقلنا إلى الموضوع الذي كان يتوقف عليه البيان الذي سيصدر خلال زيارة فورد: أي ما إذا كان هناك تقدم سيتحقق حول قضية تايوان أم لا. إذ كنت قد اقترحت أن مكتب العلاقات الأمريكي القائم في بكين والسفارة المتوضعة في تايبي يعكسان موقعهما الرسمي، أي أن ترفع درجة التمثيل الدبلوماسي الأمريكي في بكين إلى مرتبة سفارة، وأن تصبح السفارة القائمة في تايوان مكتب علاقات.

رفض دينغ الاقتراح لأن مكتب علاقات أمريكيا في تايوان ومكتباً تايوانياً في واشنطن سيتركان لتايوان مكانة سياسية كبيرة جداً. وتايوان، في عيني بكين، هي إحدى مقاطعات الصين التي لا يمكن الموافقة على إعطائها أي تمثيل دبلوماسي. ولقد أوضح دينغ ثلاثة مبادئ تتعلق بمستقبل تايوان:

«المبدأ الأول: هو أننا نُصرّ – أي أن علينا أن نصر على بيان شانغهاي. بمعنى أننا نرفض أي أسلوب يؤدي إلى حل «صينين اثنتين» أو «صين واحدة، تايوان واحدة» أو أي بديل مختلف لهذين الطرحين.

إن فكرة إقامة سفارة هنا في بكين ومكتب علاقات في تايوان إنما هي تحوير لـ «صين واحدة، تايوان واحدة» وهو المبدأ الذي لا يمكننا القبول به.

المبدأ الثاني: هو أن حل مسألة تايوان قضية داخلية تخص الشعب الصيني ويمكن تركها فقط للشعب الصيني نفسه لكي يحلها. أما بالنسبة إلى ما سوف نستخدمه لنحل أخيراً مسألة تايوان ـ أي ما إذا كانت الوسائل سليمة أم غير سليمة ـ فمسألة أو شأن داخلي يجب أن يترك للشعب الصيني كي يقرره بنفسه.

النقطة الثالثة، والتي هي مبدأ بالنسبة إلينا، هي: أننا لا نقر أبداً بأنه يمكن أن يكون هناك بلد آخر سيشارك في حل المسألة التايوانية بما في ذلك الولايات المتحدة.

مبادئ دينغ الثلاثة هذه هي أساسية لفهم موقف بكين الأساسي – حينذاك مثلما هو الآن – تجاه مستقبل تايوان. فتايوان بالنسبة إلى الصيني، مهما تكن وجهة نظره السياسية، هي جزء من الصين، اعترف بها العالم كذلك على مدى قرون وثبِّت ذلك في مؤتمر القاهرة الذي عقد في تشرين الثاني 1943، وكذلك في قرارات ما بعد الحرب كلها. وتايوان، في أعين الصين، هي حيث بدأت سلخ مقاطعاتها عندما ألحقت اليابان الجزيرة بها سنة 1895. وبالنسبة إلى بكين فإن تايوان ليست بلداً أجنبياً، ودعواها بالاستقلال تفهم على أنها تحد للتماسك الوطني وذلك بإضفاء الشرعية على طموحات وطنية في المقاطعات الأخرى البعيدة جغرافياً، والقريبة من القوى الاستعمارية. ومن الممكن أن تخوض الصين الحرب ولا تتخلى عن هذا المبدأ.

في الوقت ذاته، أعلنت الولايات المتحدة خلال ست إدارات عن إصرارها على أن يكون الحل سلمياً. وأياً كان الموقع القانوني للالتزام ـ وقد تحدى دينغ بكل وضوح صحة ذلك في رده الذي اقتبسته سابقاً ـ فإن أية حكومات صينية ستخوض مغامرة كبيرة إن جربت تطبيقه، وإلى أن تجد القضية التايوانية حلاً يتم التفاوض عليه، فإن على الجانبين أن يوازنا بكل حرص ضرورات كل منهما. فإن سعت الصين إلى حل بالقوة فستغامر بإمكانية رد أمريكي عليها، وإن سمحت الولايات المتحدة لنفسها بأن تجر إلى أن تصبح طرفاً في الحرب الأهلية الصينية من خلال الاعتراف أو التواطؤ للاعتراف بسيادة تايوان، فإنها ستغامر بخوض صراع، ستجد فيه الصين خصماً عنيداً لا يرحم.

لهذا، عمل دينغ الذي كان يفهم جيداً هذين القطبين، على تلطيف ملاحظاته مباشرة بتذكيري بقول ماو لنيكسون حول استعداد الصين للانتظار مئة عام لإعادة ضم تايوان، مضيفاً أن تحسين العلاقات الصينية ـ الأمريكية ليس عليه أن ينتظر بل يجب أن يمضي قدماً وفي الحال.

ولكي يشير للأهمية التي تعقدها القيادة الصينية على العلاقات الأمريكية، غيّر دينغ برنامج اليوم التالي كي يرتب بها نزهة جميلة للوفد الأمريكي في «الروابي العطرة» قرب بكين، وهي منطقة انتجاع للنخبة الشيوعية. فيما تابع الموضوع ذاته ماو بنفسه حين استقبلني ذلك العصر.

محادثة مع ماو

جاءت المقابلة مع ماو بالطريقة الاعتيادية التي تجري عادة. ففي 21 تشرين الأول، كنا أنا ودينغ نناقش الجناح الجنوبي للناتو ـ وهذا مثال عن مقدار اتساع ـ مدى المنافشات العملية التي كانت تجري بيننا ـ حين دخلت مساعدة وزير الخارجية وانغ هيرونغ (التي كنا نعتقد أنها ابنة أخت ماو) عند الساعة السادسة تقريباً وسلمت دينغ قصاصة من الورق. «الرئيس سيكون على استعداد لاستقبالك الساعة 6.30»، أعلن دينغ، كما أشار الصينيون إلى أن ماو يود أيضاً أن يلتقي بزوجتي التي كانت، للأسف، قد ذهبت تتسوق. غير أن الاتصالات الصينية برهنت على أنها أفضل مما يمكن للمرء أن يتوقع من منظومة الهاتف التي كانت ما تزال بدائية حينذاك. فخلال خمس عشرة دقيقة، كانت نانسي قد اقتلعت جسدياً تقريباً من أحد الحوانيت وجيء بها إلى مقر الرئيس.

لقد صدمت بمظهر ماو. إذ كان يقف، كالعادة، أمام نصف دائرة من الكراسي المريحة في منتصف مكتبه. لكن كان قد تراجع على نحو مخيف تماماً مذ رأيته آخر مرة قبل سنتين، بحيث إنه كان بحاجة إلى ممرضتين كي يظل واقفاً. فيما كان اللعاب يسيل على ذقنه. ذلك أنه كان قد تعرض لعدة سكتات دماغية ولم يكن يستطيع لفظ الكلام إلا بالكاد. ولأن اللغة الصينية هي لغة نغمية، فقد كانت المترجمة لا تفهم كلام ماو إلا بكثير من الصعوبة، وكانت مضطرة لأن تكرر أولاً ما اعتقدت أن الرئيس قاله، فإذا ما أخفقت في فهمه بعد عدة محاولات، كان يكتب لها خطياً ما يريد قوله.

كذلك بدا لي الزعيم وكأنه تضاءل وضعف إلى حد أنني خشيت أن أتهم بأنني سبب موته إن دامت المحادثة أكثر من خمس عشر دقيقة. فقد كرس الدقائق القليلة الأولى لنانسي: «إنها تعلوك قامة» نعق بصوت كصوت الغراب.

بعد أن غادرت نانسي وانتقلنا إلى الجوهر، بدا ماو وكأنه كسب قوة جديدة. إذ دام الاجتماع ساعة ونصف الساعة ثم تبين أنه الاجتماع الأهم على الإطلاق وكذلك الأكثر توتراً من اجتماعاتي الخمسة معه؛ فقد افتتح ماو المحادثات بمزاحه المألوف:

ماو: أنت تعلم أنني أعاني من مختلف العلل في جسمي، وأنني صاعد إلى السماء قريباً.

كيسنجر: ليس قريباً.

ماو: بل قريباً. وقد استلمت تقريباً دعوة من الإله.

كيسنجر: آمل ألا تقبلها قبل وقت طويل.

ماو: إنني أقبل أوامر «الدكتور».

كيسنجر: أشكرك. فالرئيس يتطلع إلى زيارة للصين ولفرصة الالتقاء بك سيدي الزعيم.

ماو: سيكون موضع ترحيب للغاية.

ثم بيّن ماو بسرعة أن ذهنه وقدرته التحليلية الساخرة سليمان لم يمسا. أما الجدل المجرد، الذي يقف على حافة الجدل الأكاديمي حول تكتيك التعامل مع الاتحاد السوفيتي والذي كان قد دار في اليوم السابق، فلم يكن بالجدل المناسب لماو: أمس، خلال اشتباكك مع نائب رئيس الوزراء، قلت إن الولايات المتحدة ليست بحاجة لشيء من الصين، والصين ليست بحاجة لشيء من الولايات المتحدة، وكما أرى، هذا صحيح جزئياً وخطأ جزئياً. فتايوان هي القضية الصغرى، أما العالم فهو القضية الكبرى. (يبدأ بالسعال، وتقترب الممرضة لمساعدته). وإذا لم يكن أيٌّ من الجانبين بحاجة لشيء من الآخر، لماذا أنت في بكين؟ إذا لم يكن أي من الجانبين يريد أي شيء من الآخر، إذن لماذا أردت المجيء إلى بكين ولماذا نريد أن نستقبلك أنت والرئيس؟.

وعندما أجبت بأن السبب الذي دعاني للمجيء هو: «أن لنا بعض الخصوم المشتركين»، قال ماو «أجل» بالإنكليزية. وللتأكيد، كتب «أجل» الإنكليزية على قصاصة ورق وسلمها لي ـ جاعلاً إياي، ربما، الشخص الوحيد الذي يمتلك قصاصة ورق مكتوباً عليها بالإنكليزية بخط الزعيم. على أن تعليقي التالي، وهو أن هناك سبباً آخر دعاني للمجيء إلى بكين هو، أن أستفيد من فهم الصين الواضح لشؤون العالم وقضاياه، لقي استحساناً أقل بجوابه لي: «تلك الكلمات لا يعتمد عليها، ذلك أنه طبقاً لأولوياتك، فإن الأول هو الاتحاد السوفيتي، والثاني أوروبا والثالث اليابان». ثم شرح ماو كيف توصل إلى هذا الاستنتاج: الاستراتيجية كما يلي:

«دعوهم يغرقوا في أوحال الصين... ثم بإصبعكم يمكنكم أن تردوا السوفييت، وشعاركم حينذاك سيكون السلام، أي أن عليكم دحر الإمبريالية الاشتراكية من أجل السلام».

فالثوري العجوز الذي لم يعرف قط مرحلة بغير كفاح ـ والذي صار، عاطفياً، شديد الاعتماد عليه إلى حد أنه كان يبتدع ثورا حتى بعد النصر ـ لم يكن ليعتقد (أو كان فقد احترامه لنا لو أنه توصل إلى الاعتقاد) بأن أمريكا ما بعد فيتنام وما بعد ووترغيب قادرة على تحريك الشعب الأمريكي دفاعاً عن التوازن العالمي وأنها تشجع ضربة سوفيتية للصين، التي كنا بكل وضوح نسعى لتحسين العلاقات معها، كمقدمة لمواجهة أمريكية للاتحاد السوفيتي وضرب مؤخرته، وهذه ميكافيلية أكثر بكثير مما يمكن أن تكون عليه الولايات المتحدة في السبعينيات، بل أتجرأ على القول، في أية مرحلة أخرى. لذلك، وبعد ردي بنوع من الاستياء، أسقط ماو الموضوع.

لا شك أن جنون العظمة المتزايد في سنوات ماو الاخيرة لعب دوراً في التوصل إلى هذه النظرية التي كانت في ذلك الحين براقة ومحبطة أصلاً لمبتكرها. فلو كان ماو يؤمن بما كان يقوله، إذن ما كان هناك فائدة من الحديث كله. ولو كانت واشنطن وموسكو تتآمران بالفعل، فما كان لأي شيء أقوله أيّف أهمية أو يترك أيُّ فارق. وهكذا عاد ماو إلى الموضوع الواقعي الوحيد، الموضوع الوحيد الذي كان يبرر مثل هذا الجمع بين التحدي والكآبة: محاولة التنسيق بين السياسات الصينية والأمريكية متابعة لهدف مشترك هو الحيلولة دون أي عدوان سوفيتي أو إيقاع الهزيمة بالسوفيت إن حدث العدوان.

على صعيد مقاومة العدوان، ثمة دائماً خياران على الأقل: أن نحاول فرض الهزيمة أو أن نلعب كسباً للوقت، المسار الأول ينصح به إذا كانت التقديرات تؤكد أن الخصم لا يُهزم، وإذا كان من المحتمل أن يتفاقم وضع الضحية المحتملة سوءاً بمرور الوقت، ذلك كان موقف بريطانيا في الثلاثينيات. فأدولف هتلر كان قوياً لا يهزم. وكان من المحتم على موقف بريطانيا أن يتفاقم سوءاً مع إعادة تسليح ألمانيا.

لذا لا بد من استراتيجية مختلفة حين يحكم بأن الوقت لصالح البلاد (أو البلدان) التي هي في حالة دفاعية، أو إذا كانت البلاد المهددة تمر في حالة من الضعف المؤقت التي لا بد من أن تتجاوزها، وكما أشرنا في الفصول السابقة، فقد كنا نفكر بأن الاتحاد السوفيتي في حالة تراجع استراتيجي لاسيما بعد أن شفيت الولايات المتحدة من مرض فيتنام ووترغيب، فذكرت ماو بالمحادثة التي جرت قبل سنتين تقريباً، وخلال الدورة التي اتفقنا فيها على منع أو إحباط أي تحرك سوفيتي يخل بتوازن القوى. إن هدفنا الاستراتيجي لم يتغير لكن، نحن نواجه مرحلة صعبة بسبب استقالة الرئيس نيكسون، مما اضطرنا لأن نناور أكثر مما كنا نود»، تلك الحجة فهمها الزعيم جيداً، هو الذي كان قد قام بكثير من المناورات في حياته، فقال: «أظن أن ذلك يحدث، فالمناورة مسموح بها».

لكـن ما إن عاد الحوار إلى وضع استراتيجية مشتركة، حتى أثار ماو تحدياً آخر. على فرض أن هناك هدفـاً مشتـركاً، فكيف يمكن لذلك الهـدف أن ينجز؟ ثم قال: من الواضح أننا لا نثـق كثيراً بجيشنا، وإلا لماذا هو ضئيل جداً وأدنى بكثير من جيش السوفييت؟ ومن الواضح أن هناك الكثير من الأوروبيين الذين يشكون بأن من الممكن أن تستخدم الأسلحة النووية دفاعاً عن أوروبا، فقد ذكر ماو خطاباً للسيناتور باري غولدووتـر وكتابـاً للمراسل العسكري للنيويـورك تايمز (وقد شككت بأنه كان يقصـد دور ميدلتون) فيما يخص ذلك الجانب وعلى الرغم من أنه لم يقل ذلك صراحة، إلا أن الدلالة كانت واضحة: كيف سندافع عن الصين بجيش صغير وكوابح حول استخدام الأسلحة النووية؟ هل كانت استراتيجيتنا هي ما دعاه ماو «باستراتيجيـة دنكرك» حتى بالنسبة إلى أوروبا؟ أي بعبارة أخرى. هل نحن نُعدّ لإخلاء المساحة الواسعة من الأرض الأورو ـ آسيوية ونحاول إنهاك الاتحاد السوفيتي من خلال استراتيجية طويل الأمد؟.

لقـد أثـار ماور المأزق الأخلاقـي والاستراتيجي الأساسـي للحرب البـاردة، والـذي هربنا منه بسبب انهيـار الاتحاد السوفيتـي: فنحن لن نكون قادرين على السيطرة من خلال حـرب تقليدية، على الأقل في مرحلـة، الاهتمام الأشـد فيها منصب على ضحايا محتملين كالصين مثلاً، ثـم إن الحضارة لن تستطيع البقاء على ظهر الأرض بعد حرب نووية. فأجبت بثقة أكثر مما هي دقة:

إذا حدث هجوم كبير في أوربا، فنحن بالتأكيد سنستخدم الأسلحة النووية. إذ لدينا سبعة آلاف سلاح في أوروبا، وهي ليست هناك لتقع في أيدي العدو. ذلك في أوروبا، أما في أمريكا فلدينا أكثر بكثير...

... سيـدي الرئيـس، فـي النهاية، لا بد مـن أن يكون لدى واحد منـا الحد الأدنى من الثقـة، بما يصرح به الآخر، هنا لا مكان لاستراتيجية دنكرك، سواء في الغرب أم في الشرق، وإذا كان هناك هجوم فإننا ما إن نوقف الهجوم، بعد أن نحرك قواتنا، حتى نكون على يقين تام من أننا سنكسب الحرب ضد الاتحاد السوفيتي.

هذا الرد جعل الزعيم يفكر ملياً بما دعاه «ليونة» ويلقي بثقله في هجمة فاصلة، فقد أشار ماو إلى أن فرنسـا تخشى توحيد الألمانيتين، فأجابت، بأننا نحن ندعمه رغـم أنه يجب إضعاف القوة السوفيتية في أوروبا قبل أن يكون بالإمكان حدوث ذلك». هنا رد ماو بطلقة مماثلة: «دون قتال، لا يمكن إضعاف الاتحاد السوفيتـي» (وفي هذا، أثبت ماو أنه على خطأ)، فحسب رأي الزعيم، كانت ووترغيب هي التي حالت دون تلـك المحاولـة، إذ قاله وهو ما يزال محتـاراً إزاء انحلال رئاسة نيكسون، «يبدو لـي أنه لم يكن ضرورياً التصرف في قضية ووترغيت بتلك الطريقة».

ختم ماو الاجتماع بأن وجّه من جديد دعوة دينغ إلى شليسنجر الجلسة الماضية. فوزير الدفاع سيكون موضـع ترحيب في الصين سواء جاء مع الوفد الرئاسـي أم جاء بشكل منفصل. هدف الزيارة سيكون ما تتركه من تأثير في الاتحاد السوفيتي. وإذا ما جاء شليسنجر، فإن ماو يأمل (مثل دينغ) أن يزور زينجيانغ ومنغوليا الداخلية ـ الواقعة تماماً على الحدود السوفيتية.

لقد كان أداء مثيراً جسدياً مثلما كان مثيراً فكرياً، وذلك بسبب النطاق الواسع، والبراعة، والعاطفة المتجسدة في التقويم. على أن نسخ ذلك لا يمكنه أن يعكس الكلام الدال على البراعة والقوة الخارقة الذي قدمه الرئيس المريض، إذ كانت الكلمات تخرج من بين شفتيه متمزقة منفلتة مثل شهقات النفس تعقبها دفقة أخرى من دفقات الطاقة تدفع بتفجير آخر للنفس يخرج من هيكل ماو المتداعي.

ولكي يتأكد من أنه ما من شيء يحرف الولايات المتحدة والصين عن التحدي الرئيسي، فقد أهمل فعلياً المبادئ المتعلقة بتايوان والتي تحدث عنها دينغ في اليوم السابق، مكرراً بنوع من التهكم اللاذع تعليقه الذي قاله لنيكسون بأن قضية تايوان يمكن أن تنتظر مئة سنة:

«بعد مئة سنة من اليوم ستزيدها وسنقاتل من أجلها .. وعندما أصعد إلى السماء لأرى الإله، فسوف أقول له: إنه من الأفضل في الوقت الحاضر أن تكون تايوان تحت رعاية الولايات المتحدة» .

بعدئذ أصدر الصينيون بياناً قالوا فيه: إن ماو «أجرى محادثة في جو ودّي مع الدكتور كيسنجر» ـ أي بالكلام الدبلوماسي، تعليق إيجابي جداً وقد تم تلطيف هذا إلى حد كبير بنشر صورة لماو يقف إلى جوار زوجتي من بعدي، وهي الصورة التي كان يبتسم فيها لكن وهو يحرك إصبعه لما يدل (طالما نعلم أن هذه الصورة تعامل كإشارات دالة من قبل الناس) على أنني أنا (أو الولايات المتحدة) بحاجة لشيء من التعليم، لكن بصورة ودية.

فورد وماو: قمة 1975:

على الرغم من النهاية البهيجة لمحادثتي مع ماو، فقد نمت لدي شكوك متزايدة بخصوص زيارة الرئيس. ورغم أن كلمات ماو كانت أقل مشاكسة من كلمات دينغ وأقل بكثير جداً من كلمات كياو، إلا أنها كانت تتضمن نبرة تحتية من التّوعد يمكن، خلال زيارة الرئيس، أن تتحول إلى تهديد. فالقادة الصينيون قد لا يكون لهم مصلحة في إظهار برودة العلاقات مع الولايات المتحدة، لكن إذا ما توصلوا إلى استنتاج بأننا صرنا وكأن لا صلة لنا بالأمر بسبب مشاغلنا الداخلية ـ أو إذا ما صار الموقف الداخلي الصيني أكثر استعداداً للمعركة ـ يمكن للنزاعات الأيديولوجية أن تسود. وأياً كان التفسير وراء نفور الصينيين الواضح من الموافقة على بيان، فقد كان ذلك يعني، كحد أدنى، إما أن القادة الأعلين لم يكونوا يتوقعون تطورات جديدة مهمة في العلاقات الأمريكية وإما أنهم كانوا يعتقدون بأن أية محاولة لتجاوز بيان شانغهاي سيثير عراقيل لا يمكن تخطيها في واشنطن أو في بكين أو فيهما كلتيهما.

لهذا السبب قمنا بثلاث خطوات: قدمنا ملاحظة لبكين هي أنه من الأفضل أن نوقف المزيد من العمل على إصدار بيان، وأن بياناً صحفياً في نهاية الزيارة سيكون كافياً، كما اختصرنا مسار الرحلة بإلغاء الوقفات في المقاطعات وتحديد رحلة فورد بسلسلة من لقاءات العمل في بكين، ثم قررنا أن نضيف زيارات سريعة إلى إندونيسيا والفيليبين بدلاً من الجولة على المقاطعات الصينية. فذلك سيخفف من

obeikandi.com

ثقل زيارة الصين بالنسبة إلى الرأي العام الأمريكي، كما أنه سيكون الإشارة التي ستفهمها بكين: وهي أن الولايات المتحدة لا تخضع في صنع سياستها لأي بلد مهما تكن أهميته.

عندما صرف فورد شليسنجر من الخدمة بعد أسبوع من عودتي من بكين، فهمت الصين ذلك بالطريقة ذاتها ولاشك، غير أنه لم يكن هناك من رابطة البتة بين المحدثين، فقد اتخذ فورد قراره، وأنا مسافر، انطلاقاً من أسس لا صلة لها البتة بزيارتي إلى بكين أو بدعوة الصينيين لشليسنجر. لكن في الصين، اعتبر ذلك ولا شك ـ في البداية على الأقل ـ رداً على محاولة التلاعب بالتوترات القائمة بين أعضاء إدارة فورد من جهة وبين الإدارة والكونغرس من جهة أخرى.

ولقد رد الصينيون بحدّة. ففي 4 تشرين الثاني، أي بعد أقل بقليل من ثمان وأربعين ساعة على عزل شليسنجر، اتصل كياو بجورج بوش، وهو إذ ذاك رئيس مكتب العلاقات وطلب إليه تأجيل الإعلان عن رحلة الرئيس. كما قال لبوش إن الصين بنت سياستها على أساس من الاعتماد على النفس، وإن الصين «لا تخشى أحداً ولا تبحث عن حماية أحد. في الوقت ذاته، كرر كياو، وبشكل فاضح، أن الصين ليست في عجلة من أمرها بالنسبة إلى تايوان، وبذلك تلغي القضية الأكثر إثارة للنزاع من جدول الأعمال المباشر، مضيفاً أن الولايات المتحدة مدينة للصين غير أن التمهل في إقامة علاقات أمريكية – صينية كاملة لن يكون السبب في سقوط السماء على الأرض» . لكن في 3 تشرين الثاني، تم الإعلان نهائياً عن الرحلة.

أما الحالة المزاجية في واشنطن فقد أوضحتها في مذكرتي الإجمالية النهائية التي رفعتها إلى فورد قبل سفره مباشرة. فقد كتبت له أنه إذا ما تعرض للتوعد بخصوص الانفراج، عليه أن يسأل من الذي يكتفي بالكلام ومن الذي يفعل وأن يقول لهم: أنا لا أقبل أي نقد. وإذا ما هاجموا الانفراج، قل لهم، هذا شغلنا نحن، لا تطمئنهم، لكن كن لطيفاً دمثاً للغاية» .

وكما حدث، تم استقبال فورد في 1 كانون الأول 1975 بدماثة لا غبار عليها. فقد استقبلنا دينغ في المطار بلفيف مهم من القادة (باستثناء السيدة ماو وهو ما لفت نظرنا) كما رافقنا إلى المضافة الرسمية حيث كانت زوجة زهاو إنلاي، وبلفتة بارعة من لفتات الصين الذكية، في انتظارنا لنقل تحيات زوجها وترحابه بنا (فقد ظل زهاو، رغم أنه عاجز عن الحركة، يحمل لقب رئيس الوزراء) . أما نائب رئيس الوزراء دينغ فقد حدد النغمة خلال الدردشة الاجتماعية: «ستعكس زيارتكم العلاقات بين بلدينا كما ستعكس صداقتنا» .

استمر دينغ بهذه النغمة في حفل الطعام الذي أقيم ترحيباً بنا. فيما ظهرت زوجة ماو ظهوراً رمزياً خلال جلسة التصوير، وتبادلت أدنى حد من الكلمات مع الرئيس، ثم اختفت بما ينز بالانفصال، بقية المساء بحيث لم يشوه الجو الاحتفالي شيء سوى أن جوقة الجيش العليا، محتارة فيما يتعلق بالكلية الأم التي تخرج منها فورد، إذ عزفت أغاني ولاية ميتشيغان بدلاً من أغاني ميتشيغان، مبرهنة على أنه حتى البروتوكول الصيني المعصوم عادة، يمكن أن يعتريه الخلل.

لـم يكن للخطاب الترحيبي لدينغ أية علاقة بالنار والكبريت اللذين اتصف بهما استقبال كياو الأبكر لي. فقد وصف زيارة الرئيس بأنها حدث هام، ودعا الأمريكيين بالشعب العظيم، وأثنى على بيان شنغهاي بوصفـه «شهيـراً» و«فريداً»، كما أكد من جديد على أن الهدف المشتـرك في معارضة الهيمنة ولاحظ أنه «بالإجمال»، كان هناك ازدياد في التواصل والصداقة بين بلدينا»، ثم اختتم كلامه ببعض الأقوال الماوية المجيـدة «هنـاك اضطرب تحت السموات» مـع تهجمات على «الهيمنة» ودعوة مـن البعثة الصينية لطرد أوهام السلام ـ وهو حينذاك نوع من الضرب الذي لا بد منه تقريباً لسياسة الانفراج.

رد فـورد بأسلـوب شديد الرفعة، مؤكداً علـى الأهمية التي نعلقها على الصداقـة مع الصين، لكن مع التمسك بثبات بالخطوط الأساسية لسياستنا.

ستسعـى الولايـات المتحدة إلى هدفيـن: تخفيف الأخطـار واكتشاف الفرص الجديـدة للسلام دون أوهـام. فالموقف الراهن يتطلب القوة والحـذر والثبات. لكننا سنستمر أيضاً فـي محاولاتنا للتوصل إلى عالـم أكثـر سلاماً، بـل إننا سنظل مصممـين على مقاومة أيـة أعمال تهدد استقـلال الآخرين وحياتهم السعيدة»(3).

فـي اليوم التالي، أشبع فورد ودينغ موضوعات المأدبة نقاشاً. إذ بدأ دينغ الجلسة بالترحيب بالرئيس والتأكيد على أهمية الاجتماع:

إننا نؤمن بضرورة تبادل الحوار العميق حول القضايا. ولا يهم إن كنا على اختلاف في وجهات النظر أو حتى لو تشاجرنا أحياناً. ولعل الوزير يتذكر أن الزعيم ماو قال له ذات مرة: الشجارات الصغيرة يمكن أن تؤدي إلى وحدة كبيرة.

علـى أننـي لم أتذكر أن ماو أبدى لي ملاحظة كهـذه. لكنني كنت سعيداً جداً فـي أن أماشي محاولة دينغ الاستشهـاد بمباركة مـاو لمحاولة تحسين العلاقات الأمريكية ـ الصينية. وقد استغل دينغ المناسبة لكي يميز نفسه عن وزير خارجيته عندما وافق على اقتراح فورد بأن أكلّف أنا وكياو في مهمة النظر بإمكانية إصدار بيان عام: أجل، يمكننا أن ندفع ذلك لهذين الشخصين اللذين تخصصا بذلك العمل، بما في ذلك التشاجر».

بعـد ذلـك، استلم فورد الحديث ليقوم بجولـة أفق واسعة. لم تكن الخطب الرسميـة الطويلة هي وسيلته المفضلـة فـي التواصل. لكن أعد نفسه أتم الإعداد. بعد أن استخلـص من الكتب الضخمة ملاحظات اعتمد عليها في كلامه. لقد كان تقديمه ذكياً ومليئاً بالأفكار راداً على بعض الحجج التي أبداها لي ماو، رافضاً فكرة الزعيم في أن الصين صارت أولويتنا الخامسة وأننا لن نستخدم الأسلحة النووية دفاعاً عن أورو ـ آسيا:

إننـا نشعر، بالطبع، أن علاقاتنا مع البلدان الأخرى مهمة، لكننا نعلق أهمية خاصة على العلاقة التي نقيمها مع جمهورية الصين الشعبية.

... ونحن لا ننكر أو نخفي الحقيقة بأننا نتفاوض مع الاتحاد السوفيتي لتوفير الاستقرار للنظام الدولي ولتحسين علاقاتنا الثنائية، وذلك بما يخدم مصلحتنا وفي سياق قد يكون الصراع فيه أصعب بكثير جداً من احتواء اللجوء إلى استخدام الأسلحة النووية. لكن إذا ما استطعنا التخفيف من التوترات القائمة، فإن ذلك سيتيح لنا في الولايات المتحدة إمكانية تحريك الدعم اللازم لكي نكون قوة حيوية في مقاومة النزعة التوسعية السوفيتية.

وعلى الرغم من قيامنا بهذه المحاولة لتخفيف التوتر مع الاتحاد السوفيتي، وعلى الرغم حتى من سعينا لتحقيق الاستقرار للمشهد الدولي دعوني أؤكد لكم، أننا سنقاوم التوسع في الشرق أو في الغرب على حد سواء ـ أي توسع عسكري من قبل الاتحاد السوفيتي ـ وبقدرتنا النووية. وعندما كرر دينغ تحليله التاريخي للضعف الغربي في وجه الفاشية في الثلاثينيات، رد فورد قائلاً:

إننا نتفق معكم على أن الاتحاد السوفيتي، في كثير من المجالات، يشبه هتلر في الثلاثينيات، لكنني أعتقد أن الموقف اليوم مختلف بشكل من الأشكال. فأنتم لن تجدوا في أي ظرف من الظروف الولايات المتحدة في السبعينيات تتبنى موقفاً (مشابهاً لموقف بريطانيا في الثلاثينيات) الآن أو في المستقبل...

فميزانياتنا العسكرية مستمرة في التزايد ونحن نؤيد استخدام القوة لمواجهة المعتدين..

في الختام، وضع فورد حداً لدروس التاريخ، من خلال تذكيره دينغ بأن روسيا الشيوعية جعلت الحرب مع ألمانيا النازية حتمية لا مناص منها، وذلك بتطامنها لهتلر، ذاك التكامن الذي كان له بالحقيقة عواقب بعيدة المدى أكثر مما كان لموقف بريطانيا:

«لقد تكلمنا حول التاريخ، سيدي نائب رئيس الوزراء، وهو صحيح أن الغرب ارتكب حيال هتلر بعض الأخطاء، لكن من العدل أن نقول: إن الغرب رد حين غزيت بولندا. كما يوضح التاريخ أن الرد في الشرق جاء فقط بعد أن بدأ غزو (الاتحاد السوفيتي): وهكذا كلنا ارتكبنا أخطاء».

على أننا كنا نفهم جميعاً ـ بما فينا دينغ ـ أن الخط الصيني الرسمي سينبثق من اجتماع الرئيس مع ماو. كان الاجتماع كالعادة، قد خطط له في مذكرة قصيرة، وكما حدث قبل أربعة أسابيع، كان بعض مساعديّ قد أبعدوا عن المكان الذي كان عليهم أن يكونوا فيه (جو سيسكو، مثلاً، الذي أردت أن منحه فرصة لمصافحة يد ماو، أعيد من «مقر مينغ» على بعد خمسين كيلو متراً عن بكين).

بدا ماو بهيئة جسدية أفضل قليلاً مما كان قبل أربعة أسابيع، إذ كان باستطاعته أن يقف منتصباً بيسر أكثر، رغم أنه لم يبد عليه أنه قد تحسن عندما يتكلم، ولعل من باب اللامبالاة بزائره، أن ما لم يقم بأي تأكيدات ثورية نارية، لكنه احتفظ بأسلوبه المازح سالماً لم يمس.

افتتح ماو الجزء الأساسي من المحادثات بسؤاله فورد عما ناقشه مع دينغ في الصباح، فأجاب الرئيس:

فورد: لقد ناقشنا مشكلاتنا القائمة مع الاتحاد السوفيتي والحاجة لأن نقوم بأعمال متوازية، ونحن ننظر إلى الظروف الشاملة على الصعيد الدولي، وإلى الحاجة لأن تعمل بلادكم وبلادي بالتوازي لتحقيق ما هو خير لنا كلينا.

ماو: نحن لا نملك الكثير من القدرات. إذ يمكننا فقط أن نطلق مدافع فارغة كهذه.

فورد: لا أعتقد ذلك، سيدي الرئيس.

ماو: بالنسبة إلى الشتم والسباب، لدينا شيء من المقدرة في هذا المجال.

وعلى الرغم من أن عجز ماو الجسدي بدا وكأنه تحسن بشكل من الأشكال، إلا أنه نقل هواجسه وهمومه فيما يتعلق بذلك بأسلوبه التهكمي المألوف.

ماو: وزير خارجيتك يتدخل في شؤوني الداخلية.

فورد: أخبرني عن ذلك.

ماو: هو لا يسمح لي أن أذهب للقاء ربي. بل إنه يقول لي أن أعصي الأوامر التي أمرني بها الرب. فالرب بعث لي دعوة لكنه (هو الوزير كيسنجر) يقول، لا تذهب.

كيسنجر: سيكون تجمعاً قوياً جداً لو ذهب إلى هناك.

ماو: إنه ملحد (الوزير كيسنجر). يعارض الإله. وهو أيضاً يحط من قدر علاقتي مع الإله. إنه رجل شديد جداً وأنا لا خيار لي سوى أن أطيع أوامره.

كيسنجر: سنكون في غاية السرور.

ماو: أجل، بالحقيقة لا سبيل أمامي البتة، لا سبيل على الإطلاق. إنه (الوزير كيسنجر) أعطى أمراً.

فورد: للإله.

ماو: بل لي.

بالنسبة إلى ماو، كانت الانقسامات المحتملة داخل بلاده شغله الشاغل والأخطر. ولقد أشار إلى ذلك مجازياً حين أعلم فورد أن رئيس مكتب علاقات الجمهورية الشعبية في واشنطن، هوانغ زين، (الذي كان حاضراً) طلب إليه أن يحدد فترة خدمته سنتين أخريين. لكن ذلك لم يكن الهدف الحقيقي لملاحظة ماو، بل الهدف هو التلميح إلى التواترات المحلية داخل الصين والتي لم ندرك أهميتها التامة إلا بعد أشهر.

هناك بعض الشبان الذين لديهم بعض الانتقادات حول (السفير هوانغ). ثم إن هاتين الاثنتين (وانغ هيرونغ) ابنة أخته، ونانسي تانغ، المترجمة) لديهما بعض الانتقادات للورد كياو. وهؤلاء الناس لا يجوز

أن تستهين بهم، وإلا ستعاني على أيديهم ـ حرباً أهلية. فالآن هناك الكثير من الملصقات لشخصيات كبيرة، ولعلكم تستطيعون الذهاب إلى جامعة كينغهوا وجامعة بكين لإلقاء نظرة عليها.

ترى هل كان ثوري الثمانين خائفاً من ثورة يقوم بها تلاميذه مع اقتراب نهايته؟ أم كان يقوم بواحدة من هجماته الدورية على «التأسيس» الذي كان يجري، أياً كان ذلك التأسيس؟ هل كان ماو خائفاً من الخطر النهائي الذي يهدد الصين إنما هو عدم الاستقرار الداخلي؟ أم تراه كان يشجع الشغب لكي تظل نيران الثورة مشتعلة؟ هل كان يحذر الجيل القديم من أن تلاميذه العقائديين ـ الذين كانت منهم ولا شك وانغ وتانغ ـ على وشك أن يطيحوا به جانباً؟ أم كان ماو يكشف عن خطة انتهت بالإحاطة بدينغ بعد أربعة أشهر؟ هل كان يعلم أية نهاية يفضلها في تلك المرحلة؟ أم كان قد أدرك أخيراً أن التوترات القائمة بين سعي الحضارة القديم إلى الاستقرار وبين حلمه في ثورة دائمة، كانت تفوق قدرته على التحكم بها تاركاً إياها للأمواج لكي تبت بالتأثير النهائي للعاصفة التي أطلق لها العنان؟.

تلك الهواجس تفسر أيضاً لماذا تكلم ماو مع فورد عن العلاقات الصينية الأمريكية بإحساس من الاعتزال أكثر من إحساس خاص بالتوجيه:

يبدو لي في الوقت الراهن أنه لا يوجد الكثير جداً بين بلدينا، بلدك وبلدي. وربما هذه السنة، أو السنة التالية، أو السنة التي بعدها لن يكون هناك أي شيء كبير يحدث بين بلدينا. لكن بعد ذلك، ربما يصبح الوضع أفضل.

مع ذلك، وحتى في تلك اللحظة من السلبية النسبية، كان هناك في تصريح ماو من الركود أكثر مما كان يتصور مسبقاً، ونظراً لأنه ما من أحد من الجانبين كان في وضع يمكنه فيه القيام باندفاعات مثيرة نحو تايوان، فقد كان ماو يكرر أساساً وبعبارات عملياتية تصريحه الأسبق بأنه يمكن للصين أن تنتظر مئة سنة لحل مشكلة تايوان. لقد كان نوعاً من التأكيد على أن الصين صبورة وأنها لن تضغط من أجل الموضوع في المستقبل القريب.

وعندما طرح فورد سلسلة من القضايا الملموسة في مختلف مناطق العالم، علق ماو تعليقات خفية بشكل متميز على شرح الرئيس للسياسة الأمريكية. وفيما يتعلق بيوغسلافيا، قال ماو، بصورة تنبؤية كما برهنت الأحداث: إن الشكوك تساوره بخصوص تماسك البلاد بعد تيتو، «لأنها مكونة من دول سابقة كثيرة»، وكان ماو يفضل عضوية إسبانيا في الجماعة الأوروبية لأن أوروبا مقسمة إلى حد كبير كما هي الحال. أما الحالة المزاجية للمحادثة فقد كانت خالية من الغمزات التي كنت قد خضعت لها قبل أربعة أسابيع.

استغرق موضوع أنغولا منا جزءاً مهماً من الوقت والمحادثة، وكان سيرتهن العلاقات الصينية – الأمريكية لبعض من الزمن القادم، فمثلما أجهضت محاولة ضمان توسط الصين في قضية كمبوديا

قبل سنتين من خلال حظر الكونغرس للعمل العسكري هناك، هكذا أخفقت المحاولات الصينية للتنسيق حول أنغولا حين قضت «تعديلات طوني وكلارك» على إمكانية تقديم المساعدات للقوات المضادة لحركة التحرر الأنغولية هناك. وحين أجمل فورد نظريتنا بخصوص المحاولة لإيقاف المشروع السوفيتي ـ الكوبي، اعترض ماو مقاطعاً إياه بنوع من الضيق «يبدو أنه ليس لديكم الكثير من الوسائل» .

فشرح الرئيس أنه كان قد وافق للتو على 35 مليوناً أخرى رصيداً للدعم ـ وهو مبلغ صغير كان في الغالب يدعم، أكثر مما يناقض، انتقاد ماو الضمني. كما طلب إلى الزعيم أن يساعد في هذا المجال. بالنسبة إلى ماو، الذي كانت علاقته مع الولايات المتحدة ترتكز، وعلى نحو هام، على توقع الدعم الأمريكي ضد الاتحاد السوفيتي، وعلى حدوده، لم يكن مما يوحي بالثقة تماماً الطلب إليه أن يساعد في إيقاف التحركات السوفيتية في أفريقيا، التي تبتعد آلاف الأميال عن الأراضي السوفيتية والتي هي أقرب منالاً بكثير للسلطة الأمريكية.

على أن ماو ساير طلب فورد. مما أدى إلى بعض الكلام المفكك عن أي بلاد أفريقية يا ترى يمكن أن تسمح بعبور المعدات الصينية. ولأن جوليوس نيريري، رئيس تنزانيا وصديق الصين التقليدي في أفريقية كان قد ألقى بثقله كله إلى جانب حركة تحرير أنغولا، فقد حث ماو على استخدام زائير (وقد وجد بعد ثلاثة أشهر، عندما كنت أقوم برحلاتي المكوكية في أفريقية، أن ماو، بالحقيقة، قد وفّى بوعده وسلّم ثلاثين دبابة تقريباً) ، كما حث فورد ماو على استخدام نفوذه لإبقاء موزامبيق على الحياد بالنسبة لأنغولا، فأشار ماو، ولو بشيء من التشكك، إلى «أننا يمكن أن نقوم بمحاولة».

بعد أسبوعين، أوقف الكونغرس صرف الأموال التي ذكرها فورد لماو وأنهى تدخلنا في أنغولا، لكن في تلك اللحظة وفي مكتب الزعيم، كان المزاج ما يزال مبتهجاً متفائلاً، إذ قال ماو، واضعاً إشارة الموافقة على زيارة فورد: «نحن لم نجر محادثات مع الاتحاد السوفيتي كالمحادثات التي أجريناها معكم. فقد ذهبت إلى موسكو مرتين وجاء خروتشوف ثلاث مرات إلى بكين لكن ما من مناسبة من هذه المناسبات جرت فيها المحادثات بصورة حسنة فعلاً» .

ولكي يبين ماو مشاعره الطيبة، رافق فورد إلى الباب الأمامي لمقر إقامته ـ وهي مجاملة رمزية لم يفعلها مع نيكسون ونظراً لوهن جسمه، فقد كان ذلك يستحق الذكر على نحو خاص، إذ لم يكن ماو يستطيع الوقوف إلا بالكاد فكيف بالمشي؟! ـ حتى عندما يسنده عنصران مساعدان ـ لابد وأنه ظل صعباً للغاية. هذا الجو من حسن الضيافة والود أوحى لفورد بإضافة لمسة خفيفة من خلال الارتداد إلى بداية المحادثة: «سأقول لهنري أن يكف عن تدخله في شؤونك الشخصية». لكن، وقد أدرك أنه قال لماو تماماً أن يقع ميتاً، صحح الرئيس قوله بأن قال: إنه كان يأمل، حتى بغير أوامر مني، ألّا يلبي ماو دعوة الإله. ولكي أوصل الأمر إلى بر الأمان، فقد أضفت أنني سأصر على أوامري، وهو ما أشار إليه ماو بأنه سيطيعه.

فـي نهايـة زيارة فورد إلى الصين في كانون الأول 1975، كان ألق مرحلة الغزل في العلاقات الصينية ـ الأمريكية قد خبـا، والتعقيدات المتأصلة في تلك العلاقـات ـ والتي دعاها السفيـر السوفيتي أناتولي دوبرينيـن بشـيء من الخبـث بـ «محاولـة التقاط الكافيـار بعيدان الطعـام» بات ظاهرة، لكـن، كما هي الحـال في الزيجات التي تمتد طويلاً، كان هذا يعنـي أن الجانبين تعلّما أن يعيشا وحدهما مع الآخر رغم المتطلبـات المختلفـة لكل منهمـا أحياناً. إذ كان الصينيـون قد بدؤوا يدركون أننـا سنبذل أقصى ما في وسعنـا لمنـع التوسع السوفيتي حتى وإن شكّوا بطرائقنا، فيما أدركنـا نحن أن السياسة الخارجية للصين إنمـا يمليهـا فهم الصين لمصلحتها القوميـة وبالتالي تتوقف على التقدير الصينـي لمقدرتنا على حفظ توازن القوى العالمي.

شواغل داخلية

لكـن قبـل أن تستقر العلاقات الصينيـة ـ الأمريكية وتركـد، أفضت الاضطرابـات الداخلية في كلا القطريـن إلـى فاصل من القلق والارتياب دام مـا يربو على السنتين. ففي 19 كانـون الأول، أي بعد سبعة عشـر يومـاً من محادثات فورد مع ماو، صـادق الكونغرس على قانون تعديلات تونـي التي يمنع تقديم أية مساعـدات أخـرى إلى أنغـولا، ويحبط للمرة الثانية خـلال سنتين، محاولة التنسيق مـع الصين. بعدئذ، بـدأت الصحف الصينية تنتقد الشلل الاستراتيجي الأمريكـي، فيما ألقى رئيس مكتب العلاقات الصيني فـي واشنطن باللائمة في ذلك كله على السياسة الأمريكية: «سياسة الولايات المتحدة تحرض السوفييت على الشر والإثم». وإذا كنا غير راغبين أو غير قادرين على منع الهيمنة السوفيتية في العالم الثالث، كما قال، يمكن للصين أن تعيد تقويم علاقاتها مع الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي.

فـي نهايـة كانون الأول 1975، أفرج الصينيون علناً عن حوامـة سوفيتية وطاقمها الذي كانوا قد ألقوا القبـض عليـه وعليها منذ آذار 1974 بتهمة التجسس، بل إنهم قدموا وجبة عشاء للطاقم قبل الإفراج عنه مباشرة. وقد فسرت السي آي إي ذلك بأنه علامة على انزعاجهم من تخلينا عنهم، فيما وصفت الحركة الصينية بأنها التحرك الصيني الأكثر تصالحية الذي قدمته بكين لموسكو منذ 1969، عندما دعي رئيس الـوزراء ألكسي كوسيجين للتوقـف لفترة قصيرة في الصين وهو في طريـق عودته إلى الوطن من جنازة هوشي منه.

لقـد اتضح تماماً أن الصيـن تلعب لعبتها بالورقة السوفيتية. غير أن الشروط الموضوعية لذلك لم تكن موجودة. فالانزعاج من السياسة الأمريكية لم يكن ليقلل من الاهتمام الصيني بالنزعة التوسعية السوفيتية أو يجعـل التقارب مع موسكو أقل خطراً. لذلك. وخلال سنـة 1976، استأنفت بكين خطها المتشدد المضاد ـ للسوفييت، صابّة مـرّ انتقادها على الإمبرياليـة والهيمنة السوفيتية التي جعلـت، وبسبب ضعف الموقف الأمريكي، من موسكو «المصدر الرئيسي» (حسب عبارات وكالة الأخبار الصينية شينهوا) لخطر الحرب.

في 6 شباط 1976، تم الإعلان عن أن ريتشارد نيكسون سيقوم قريباً بزيارة شخصية للصين، فكانت تلك على الصعيد الإنساني، حركة ذكية لتكريم صديق في المنفى مصاب بمصيبة إنسانية عظيمة، لكن على الصعيد السياسي، كانت الدلالات أكثر إبهاماً وغموضاً. أتراها إشارة إلى فورد وإدارته بأن عليها العودة إلى سياسة نيكسون ومرحلته؟ فخلال زياراتي في الخريف، حدثت عدة تلميحات تقارن بين نيكسون وفورد، وقد رددت عليها بقوة. أم تراها محاولة للتأثير في سياستنا الداخلية لأن انتخابات نيوهامبشاير الأولية، التي كان ريغان فيها سيواجه فورد، ستجري في الأسبوع ذاته لزيارة نيكسون إلى الصين؟ أياً كان التفسير لتوقيت الزيارة، فقد أثارت إشكالات عديدة، لاسيما في الجانب السياسي من بيت فورد الأبيض.

في البقية الباقية من 1976، فرضت حملتنا الانتخابية نوعاً من الفجوة في مبادرات السياسة الخارجية الأمريكية الرئيسية حيال العالم الشيوعي. كما صنعت شيئاً من الاختلاف لأن الصين كانت تمر بحالة من الاضطراب الداخلي الأكثر حدة حتى في 8 كانون الثاني، 1976، إذ توفي زهاو إنلاي، فكانت جنازته المناسبة الخاصة بإبداء الحزن العفوي في ساحة تيانا نمين حداداً على الرجل الذي كان الشعب الصيني يعتبره الأكثر إنسانية من بين قادته الشيوعيين.

ولقد كان من المتوقع على نطاق واسع أن يخلف دينغ زهاو بوصفه رئيساً للوزراء. لكن بدلاً من ذلك، أعلن في 7 شباط، أنه من هنا فصاعداً سيكون القائد الغامض الآتي من مقاطعة هونان، هواغوفينغ، هو القائم بأعمال رئيس الوزراء. وفي مطلع نيسان، جرت مظاهرات حاشدة عفوية بكل وضوح في ساحة تيانا نمين، تتعلق بالخلاف حول وضع أكاليل زهور على شرف زهاو في المكان التذكاري ذاته الذي سيصبح الهدف المركزي لمظاهرات حاشدة أكثر أيضاً ومضادة للحكومة بعد عقد ونصف العقد من الزمن. هذه المظاهرات ردت عليها بمظاهرات مضادة ممرحلة بعناية قامت بها الوزارات والهيئات الرسمية الأخرى. وقد قاد وزير الخارجية كياو غوانهوا مسيرة وزارته عبر ساحة تيانا نمين، وهي بالتأكيد مهمة مؤلمة ـ وإجبارية بصورة مؤكدة تقريباً، بالنسبة إلى تلميذ زهاو هذا الذي كان أسلوبه وسلوكه أقرب إلى أسلوب رئيس الوزراء المتوفى وسلوكه مما هما بالنسبة لأي من قادة الصين الآخرين.

بعد ذلك بفترة وجيزة، أي في 6 نيسان 1976، جُرّد دينغ من مناصبه كلها لكن سُمح له بالاحتفاظ بعضويته في الحزب «بحيث نرى كيف سيتصرف في المستقبل». فيما عُيّن هواغوفينغ نائباً لرئيس الحزب ـ أي خلفاً لماو ـ ورئيساً للوزراء. وخلال الليل. ظهرت ملصقات تدين دينغ وتشجبه في الشوارع كما نُظِّمت مظاهرات مضادة ـ لدينغ.

في أيار، وصف الخبير الرصين في شؤون الصين وأحد أركان مجلس الأمن القومي، ريتشارد سلومون، الوضع كما يلي:

بعد شهر واحد من عزل نائب رئيس الوزراء دينغ..

لا يبدي المشهد السياسي في بكين أية علامة للعودة إلى «المعتاد» . والتشابهات في النمط الظاهري العام للقادة الكبار تدل على استمرار التوترات وقلاقل الدور بين النخبة المركزية. أما الكوادر فتزمجر سراً ـ وللأجانب ـ بخصوص تصرف الزعيم ماو المعتمد في طرده لدينغ، فيما وضع الجيش في أقصى درجات الاستنفار تحسباً من أعمال «مضادة للثورة»، وبالإجمال، فإن السياسة الداخلية للصين تبدي كل علامة من علامات المعاناة من انفلات خطير في السلطة المركزية. واستمرار التوتر الشللي بين أعضاء المكتب السياسي، وتوقُّع مشكلات أخرى.

لم يستقبل رئيس الوزراء الجديد توم غيتز، الرئيس الجديد لمكتب علاقاتنا في الصين، طوال أربعة أشهر، رغم أنه، حين قابله في حزيران كرر الخطوط الرئيسية لما كنا قد سمعناه من دينغ وماو. وباستثناء الوخزة التي تلقاها غيتز بخصوص «عقيدة سونينفيلدت»، فإن بقية ما قاله هواغوفينغ له، إنما كان مألوفاً تماماً: للقضايا الدولية الأسبقية على مشكلاتنا الثنائية، (كتايوان مثلاً)، ورابطة آسيان «مفيدة لإبقاء النمر (فيتنام) بعيداً عن الدخول من الباب الخلفي فيما يطرد الذئب من الأمامي»، وأولوية اليابان العليا في أن تكون ذات علاقات جيدة مع الولايات المتحدة. لكن بعد شهر، وفي منتصف تموز، استغل نائب رئيس الوزراء، جانغ تشو نكياو، الذي كان يعتبر عموماً الرجل الأقوى في القيادة والعضو الأساسي في عصبة الأربعة، مناسبة زيارة كان يقوم بها زعيم الأقلية في مجلس الشيوخ الأمريكي، هيو سكوت، لأن يتخذ موقفاً مشاكساً للغاية فيما يتعلق بتايوان:

إننا واضحون جداً فيما يتعلق بتايوان: فمنذ نشوء هذه القضية، وتايوان حزام حول عنق الولايات المتحدة، وإنه لمن صميم مصالح الشعب الأمريكي أن ينزع ذلك الحزام. فإن لم تفعلوا فإن جيش التحرير الشعبي سيقطعه. ولسوف يكون هذا لصالح كلا الشعبين الأمريكي والصيني ـ نحن كرماء ـ ونحن جاهزون لمساعدة الولايات المتحدة في حل المشكلة بحرابنا ـ ولعل هذا ما يبدو ساراً، إلا أن هذه هي الطريقة الوحيدة لذلك.

في 9 أيلول 1976، أُعلنت وفاة ماو وبعد أربعة أسابيع أطيح بعصبة الأربعة. وخلال بضعة أشهر، عاد دينغ من المنفى كي يهيمن على حياة الصين طوال العقدين التاليين إذ كان يؤسس فيهما للإصلاح الأساسي الأعظم في تاريخ بلاده الحديث.

بعودة دينغ تلاشت التواترات مع الصين. فالأولوية لديه كانت الإصلاح. أما سياسته الخارجية فترتكز بالأساس على علاقات التعاون والتنسيق مع الولايات المتحدة. فيما توقفت المحاضرات عن فلسفة التعامل مع الاتحاد السوفيتي. وبدلاً من ذلك، ركز دينغ على سياسات محددة، متحاشياً الحجج المتعلقة بطبيعة علاقات الشرق ـ غرب ـ حتى خلال إدارة كارتر الذي كانت سياساته تجاه موسكو ستثير

بالتأكيد الكثير من الانتقادات لو أن ماو كان ما يزال في سدة القيادة. وللتأكد، فقد كان تعريف دينغ للصداقة هو تعريف صيني في صميمه ــ أي بلا ذرة من العاطفة. إذ كان يعكس تقديره لمتطلبات الأمن الصيني واقتناعه بأن الصين يمكن أن تتقدم اقتصادياً فقط في جو من الاسترخاء الدولي الذي كانت العلاقات الطيبة مع الولايات المتحدة تعتبر شرطاً مسبقاً أساسياً بالنسبة إليه.

في سنة 1979، قام الرئيس كارتر بتطبيع العلاقات مع الصين وذلك، جوهرياً، على أساس المبادئ الثلاثة التي كان دينغ قد لخصها لنا في تشرين الثاني 1975. سنة 1982، وافقت إدارة ريغان في بيان لها على الحد من الإمدادات العسكرية الأمريكية إلى تايوان، وبعدئذ، اختفت تايوان من جدول الأعمال الصينية ــ الأمريكية لعقد ونيف من الزمن ـ أي إلى أن تطورت تايوان في الاتجاه الديموقراطي وظهرت حركة الاستقلال.

لقد ظهرت صفقة خفية فيما يتعلق بتايوان، كانت بوادرها الأولى قد بدأت خلال زيارة نيكسون، ثم تم دعمها وتأكيدها من قبل الإدارات التالية كلها. هذا التفاهم ـ الذي يتجاوز البيان الرسمي ـ كان يتألف من العناصر التالية:

أولاً: توافق الولايات المتحدة على سياسة صين ـ واحدة، بما في ذلك التخلي عن صينين ـ اثنتين أو فكرة «صين ـ واحدة، تايوان ـ واحدة».

ثانياً: تعليق ماو لفورد «بأنه يمكننا الانتظار مئة سنة» الذي وافق عليه دينغ إنما يعني ـ على الأقل، حسب تأويلنا ـ أن بكين لن تضغط من أجل قضية تايوان إلى درجة استخدام القوة.

ثالثاً: وأخيراً تقوم تايوان بتنمية استقلالها الذاتي دون تحدي الوحدة النهائية مع الصين[4].

تقدم الحوارات الموضوعة في هذا الفصل تبصراً في الطريقة الصينية بإدارة الدولة، أي الحساب الدقيق للفوائد والمضار؛ التأكيد على اعتبارات التوازن، غياب الأيديولوجية لدى تحليل السياسة الخارجية أو وضع أهدافها ـ وهو اتجاه اشتد قوة حتى إثر إصلاحات دينغ مقارنة بما كان عليه في بدايتها؛ وأخيراً الرغبة في إقامة علاقات تعاون مع الولايات المتحدة.

هذه كلها تمثل تبايناً واضحاً عن الطريقة السوفيتية. فالقادة السوفييت لم يكونوا غريبين عن حسابات توازن القوى، وكان باستطاعتهم أيضاً، أن يأخذوا بالحسبان الفوائد والمضار ـ وغالباً بشكل حسن تماماً. لكنهم أيضاً كانوا يعتبرون أنفسهم زعماء أيديولوجية العالم الشيوعي. أما عقيدة بريجنيف ـ أي الحق في التدخل من أجل الدعم بالقوة الحكومات الشيوعية المهددة بانتفاضات داخلية ـ فقد كانت غير معقولة لدى ماو، وغير ممكن التفكير بها لدى دينغ (أو خلفاء دينغ). ولم يكن الزعماء الصينيون ليسمحوا لنظام شيوعي تابع أو أحزاب أيديولوجية أن تجرها إلى مغامرات كما حدث في أنغولا.

تـرى هل تغيرت العلاقات الصينية ـ الأمريكية بعد انهيار الاتحاد السوفيتي؟ هل يمكن للصين ذاتها أن تغـدو التهديـد الرئيسـي للأمن الأمريكـي؟ ينبغي على الولايـات المتحدة أن توضح أنهـا ستدافع عن التـوازن الآسيوي ــ الباسيفيكي وأن تدعم كلاً مـن تحالفاتها وقوتها العسكرية فـي المنطقة، إذ سيكون لهـذا فقط تأثيره الثابت في علاقة الولايـات المتحدة ـ الصين على المدى الطويل. فالترسانة السوفيتية النوويـة كانـت تمثل خطراً مهلكاً محتملاً للولايات المتحدة، فيما ليس للصين أيَّةُ مقدرة مماثلة ولن يكون لهـا مثل هذه المقدرة على مدى جيل على الأقل، والاتحـاد السوفيتي يجاور بلداناً ضعيفة يمكنه ابتزازها بقواته التقليدية الكاسحة. فيما جيران الصين كلهم كانوا ضعفاء، وأي تحالف بينهم سيمثل تهديداً كبيراً للصيـن. واستباق مثل هذا التحالف، يحتمل بالنسبة إلى الجيل التالي، أن يكون الأساس الذي تنطلق منه السياسة الخارجية الصينية، جنباً إلى جنب مع إقامة روابط اقتصادية متينة مع الغرب. ذلك هو الأساس الموضوعي لحاجة الصين المستمرة للعلاقة مع الولايات المتحدة.

أمـا بالنسبة إلـى الولايات المتحدة فعليها أن تبحـر بين عداء أيديولوجي للصيـن يوتّر كل علاقاتها الآسيويـة الأخرى، وبين عاطفيـة انعكاسية تمنع من القيام بتحليل واقعي لتبـدل عناصر القوة الآسيوية. والتكيـف مـع هذا الواقـع الجديد للعلاقـة الصينية ــ الأمريكية في عالم غـاب عنه التهديـد السوفيتي بالخطر، إنما هو التحدي الذي واجه خلفاء فورد (ودينغ).

openkandil.com